توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

من مزايا الأدب الجغرافي العربي غناه بكتابات الرحالة ، والرحالة وإن انتموا من حيث المبدأ الى الجغرافيين ، هم في الواقع ينتمون بصورة اكثر التصاقا الى التاريخ ، لأن مدوناتهم وثائقية لهم قيمة سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة ، وفي تاريخنا العربي جاء جل الرحالة من الغرب الاسلامي، من الاندلس وبلدان الغرب ، ومعظم الرحلات بالأصل حجازية ، ثم تفرعت فصارت شامية وعراقية وجزرية ومصرية.

لقد جاء معظم المغاربة والاندلسيين برا وبحرا الى المشرق طلبا للعلم واداء فريضة الحج ، ويلاحظ ان عدد هؤلاء الذين زاروا المشرق في فترة الحروب الصليبية لم يكن كبيرا ، مقارنة بعدد الأوربيين الكبير الذين حجوا آنذاك الى الأراضي المقدسة ، وسأقوم – انشاء الله – في فترة لاحقة بترجمة كتب الرحلات الأوربية.

ومع اندلاع احداث الحروب الصليبية غادر المشرق الامام ابو بكر ابن العربي وذكرت من قبل أنني اطلعت على نسخة خطية في المغرب من هذه الرحلة ، ومع ذلك اودع ابن العربي في كتبه عددا من المشاهدات خاصة في كتابه العواصم من القواصم ، وبعد ابن العربي، يعد ابن جبير اهم الرحالة الذين زاروا المشرق اكثر من مرة ايام نور الدين أولائم ايام صلاح الدين ولفتت رحلة ابن جبير انتباه المؤرخين والباحثين اليها منذ القرن الماضي ، وماتزال موضع اهتمام المؤرخين وسواهم وابن جبير:

هو محمد بن احمد بن جبير الكناني الأندلسي ، البلنسي الأصل ، الغرناطي الموطن ، ولد سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٥ م ، او قبيل ذلك بسنة ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م ، وكان شاعرا أديبا من علماء الأندلس فقها وكرم نفس واخلاق ، اخذ العلم عن علماء عصره في الأندلس ثم في الحجاز والشام والعراق ، وقام ابن جبير بثلاث رحلات الى المشرق ، كانت اولاها سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢ م وهي التي اودع مشاهداته خلالها في كتاب رحلته المتداول ، ثم قام بالرحلة الثانية سنة٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ، وذلك انه سمع بنصر حطين ، فجاء ليقدم تهانيه وبيعته لصلاح الدين ، وسنرى في الروضتين لأبي شامة نص القصيدة التي نظمها بهذه المناسبة ، وامضى هذه المرة عامين في المشرق ثم عاد الى غرناطة ، ثم رحل ثالثه اثر وفاة زوجته ، فحج وجاور طويلا ثم قدم الى الاسكندرية حيث توفي فيها.

وسنرى في مواد موسوعتنا صورة الاحداث المأساوية التي عانت منها بلاد الشام والجزيرة ومصر بعد وفاة صلاح الدين ، وذلك بسبب الصراعات بين ابناء البيت الأيوبي، وقد حسم الصراع بعد امد لصالح الملك العادل ابو بكر بن ايوب - اخو صلاح الدين - واشار المؤرخون الى ان مصر عانت منذ السنة التي تسلم العادل السلطة فيها من القحط الشديد ، وادى هذا القحط الى مجاعة هائلة ، وصف بعض صورها عبد اللطيف البغدادي.

وهو موفق الدين - ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ابن علي وعرف بابن اللباد ، كان موصلي الأصل ، بغدادي المولد ، ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ، ونشأ نشأة جدية حيث انصرف منذ طفولته نحو طلب العلم في بغداد اولا ثم في دمشق ، وقد اهتم اهتماما كبيرا بصناعة الطب ، وللطب احترف في دمشق.

وقد حدثنا نفسه عن قدومه الى دمشق بقوله:« ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق في بغداد من يأخذ بقلبي ،

ويملأ عيني ، ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل ، فلم اجد فيها بغيتي .. ولما دخلت دمشق وجدت فيها من اعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحي جمعا كبيرا ، وشارك البغدادي في نشاطات دمشق العلمية ، ثم ارتحل الى معسكر صلاح الدين قرب عكا ، قال:« ثم اني توجهت الى زيارة القدس ، ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا ، فاجتمعت ببهاء الدين ابن شداد ، قاضي العسكر يومئذ ، وقد اتصلت به شهرتي بالموصل ، فانبسط الي واقبل علي وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب ، فقمنا اليه ، وخيمته الى خيمة بهاء الدين ، فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة ، وقال: هذا كتاب الى بلدكم ، وذاكرني في مسائل من علم الكلام ، وقال: قوموا بنا الى القاضي الفاضل ، فدخلنا عليه ، فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملي على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه في اخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة اعضائه... وقال لي ترجع الى دمشق وتجري عليك الجرايات ، فقلت: اريد مصر ، فقال السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا ، وقتل المسلمين بها ، فقلت : لابد لي من مصر ، فكتب لي ورقة صغيرة الى وكيله بها .

فلما دخلت القاهرة جاءني وكيله ـ وهو ابن سناء الملك ـ وكان شيخا جليل القدر ، نافذ الأمر ، فأنزلني دارا قد ازيحت علتها وجاءني بدنانير وغلة ، ثم مضى الى ارباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب... وشاع ان صلاح الدين هادن الفرنج وعاد الى القدس ،فقادتني الضرورة الى التوجه اليه... وتوجهت الى القدس فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة ، والقلوب محبة ، قريبا بعيدا ، سهلا محببا ، واصحابه يتشبهون به يتسابقون الى المعروف كما قال الله تعالى:« ونزعنا ما في صدورهم من غل» واول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل العلم ، يتذاكرون في اصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ، ويتفقه في ذلك ويأتي بكل معنى بديع ، وكان مهتما في بناء سور القدس وحفر خندقه ،

يتولى ذلك بنفسه وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسى به جميع الناس الفقراء والأغنياء ، والأقوياء والضعفاء حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ، ويركب لذلك قبل طلوع الشمس الى وقت الظهر ، ويأتي داره ويمد الطعام ثم يستريح ، ويركب العصر ، ويرجع في المساء ، ويصرف اكثر الليل في تدبير ما يعمل نهارا ، فكتب لي صلاح الدين بثلاثين دينارا في كل شهر على ديوان الجامع ،واطلق لي اولاده رواتب حتى تقدر لي في كل شهر مائة دينار».

ورجع البغدادي الى دمشق ، وكان فيها عندما عاد صلاح الدين اليها ، وشهد هناك مرض صلاح الدين ووفاته وما حدث بعد ذلك قال:« ثم إن صلاح الدين دخل دمشق ، وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحم فقصده من لاخبرة عنده ، فخارت القوة ،ومات قبل الرابع عشر ، ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء ، ومارايت ملكا حزن الناس بموته سواه لأنه كان محبوبا يحبه البر والفاجر ، والمسلم والكافر ، ثم تفرق اولاده واصحابه ايدي سبأ ، ومزقوا في البلاد كل ممزق».

واقام البغدادي بدمشق حتى حاصرها العزيز عثمان بن صلاح الدين ، وقد خرج اليه ، ورافقه الى مصر ، وظل مقيما بالقاهرة حتى ما بعد وفاة العزيز عثمان الى استيلاء العادل على القاهرة ، وقد قام البغدادي بوصف مصر ودون اخبار المجاعة التي تعرضت اليها ايام العادل ، وبعد هذا غادر مصر الى القدس ، ثم الى دمشق ، وبعد ذلك الى حلب ، وزار بلاد سلاجقة الروم ، ثم عاد الى حلب فأقام بها مدة طويلة وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة السفر الى العراق ليحج ، فمرض ببغداد ، واخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات ـ كما شاء الله ـ في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة»(١٢٣٢ م) وكان البغدادي غزير الانتاج متنوعه ، من ذلك الحديث واللغة والطب والحساب والنبات ، والتاريخ ، ووصلنا من تاريخه بعض الذقول اخترت منها ماارتبط بموضوع الحروب الصليبية ، كما اخترت فصلين مما وصف به المجاعة بمصر.

واعود للتأكيد إن لمواد ابن جبير ومواد البغدادي اهمية تقترن بما كتبه العماد الاصفهاني وابن شداد ، وتغني صورة الأحداث ، لاسيما من الجوانب غير العسكرية والسياسية.

وينتمي الى عصر ابن جبير والبغدادي مؤرخ كبير ، عاش ايضا عصر صلاح الدين ، لابل حضر بعض معاركه ، ومع ذلك لم يكن كبير الاعجاب بصلاح الدين ولامؤثرا له ، لأنه جزري المولد ، موصلي الأقامة ، اتابكي الهوى ، إنه ابن الأثير الجزري .

عدت منطقة الجزيرة بين اقدم الامصار التي ازدهرت فيها الحضارة العربية ففي مدنها توفرت المدارس والمكتبات ، وعاش فيها الكتاب والشعراء ، وصنف الجزريون في مختلف فنون المعرفة بالسريانية حينا وبالعربية في غالب الاحيان ، وسلف لنا التعرف الى عدد من المؤرخين السريان ، ولاسيما الذين ارخوا لأحداث الحروب الصليبية ، واكثر من السريان واعظم شهرة الذين ارخوا بالعربية ، وتعرفنا من قبل على ابن الأزرق وتعاملنا مع مواده التي اودعها في كتابة« تاريخ آمد وميافارقين».

واعظم شهرة من ابن الازرق واخصب انتاجا ابن الاثير ، وهو عز الدين ابو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني وقد ولد عز الدين(٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) في جزيرة ابن عمر ، وكانت من اعمال الموصل ، وفيها عاش الى ان انتقل مع والده واسرته الى الموصل سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م ، وكان والده من اعيان العاملين في الدولة الاتابكية بالموصل ، وغالبا ما أشار اليه ابنه في كتاباته.

وكان لابن الاثير اخوين ، واحد اسن منه ، هو مجد ابو السعادات المبارك ، ولد سنة٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، وعرف الاصغر منه باسم ضياء الدين نصر الله، وكان قد ولد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ، واتجه كل واحد من الاخوة الثلاثة نحو

اختصاص تميز به ، فقد شهر مجد الدين بالعلوم الدينية ، واختص ضياء الدين بالأدب ، وسيرد معنا ذكره كثيرا ، اثناء وزارته للأفضل علي بن صلاح الدين ، ومثل ضياء الدين خدم مجد الدين في ادارة الاتابكة في كتابة الانشاء بالموصل ، لكن عز الدين مؤرخنا - كما يرجح - لم يدخل في خدمة الاتابكة ولعله لم يتسلم أية وظيفة لديهم ، مع ان صلاته بهم كانت وثيقة ، ومكانته لديهم عالية حتى انه سفر لبعضهم الى بغداد وربما الى غيرها ، وتتلمذ مؤرخنا على علماء عصره وحصل على معارف واسعة خاصة في ميدان التاريخ وصنف اربعة كتب وصلتنا ونشر بعضها اكثر من مرة وهي :

١ - اللباب في تهذيب الانساب
٢ - اسد الغابة في معرفة الصحابة
٣ - الكامل في التاريخ
٤ - التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل

وقد هذب في الأول كتاب الانساب للسمعاني ، ولان السمعاني اقتصر اهتمامه على الانتساب الجغرافي ، فقد عدا كتاب اللباب لابن الاثير جغرافيا تاريخيا ، وعليه اعتمد ابو الفداء في تصنيفه لكتابه تقويم البلدان.

ويعد كتاب اسد الغابة من اهم معاجم تراجم الصحابة عليهم السلام اما كتاب الكامل في التاريخ ، فهو من اهم مصادر تاريخ الاسلام . اختصر فيه ما اورده الطبري في تاريخه ثم اكمل اخبار الاسلام حتى ايامه ، لكنه وإن اعتمد على الطبري بشكل اساسي فانه استدرك عليه وسد الخلل في معلوماته وراعى التوازن بين اخبار المشرق والمغرب.

وصنف ابن الاثير كتابه الباهر للتأريخ للأسرة الاتابكية التي عاش وذووه في كنفها ، وكان والده مصدر الكثير من معلوماته ، وكذلك مشاهداته وسماعاته من معاصريه ، وبحكم الانتماء الى

الاتابكة أقبل على الثناء عليهم جميعا ، ولدى تأريخه للصراع بين صلاح الدين وأتابكة الشام والموصل تحزب للاتابكة وحرم صلاح الدين من الثناء ان لم نقل انتقد افعاله ، ومع هذا يظل كتابه هذا بين اهم مصادر اخبار الجزيرة والحروب الصليبية ، يكمل حلقة موادنا التي حصلنا عليها من ابن الازرق الفارقي والمصادر السريانية ، اما موقفه من صلاح ففي مواد العماد الاصفهاني وابن أبي طي وابن شداد وسواهم ما يعدل الصورة ويوازن المعلومات.

لكتاب الباهر نسخة خطية واحدة معروفة بالعالم ، محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس برقم/ ٨١٨ / ، وقد وقعت في / ٢٣٢ / ورقة ، احتوى كل وجه منها على ثلاثة عشر سطرا ، في كل سطر ما بين سبع الى عشر كلمات ، وسلف ان نشر هذا الكتاب من قبل المستشرق الفرنسي دي سيلين عام ١٨٧٦ م وترجم الى الفرنسية ثم اعيد تحقيقه ونشر بالقاهرة عام ١٩٦٣ م ، محققا من قبل عبد القادر أحمد طليمات ، حيث كان موضوع رسالة ماجستير نوقشت في جامعة عين شمس عام ١٩٦٢ .

وبذل السيد طليمات قصارى جهده لضبط نص مخطوط هذا الكتاب الهام ، واستدرك كثيرا من التصحيفات على طبعة دي سيلين ، لكن ضعف خلفياته التاريخية حول السلاجقة وفترة الحروب الصليبية وعدم تعمقه بالتعامل مع المخطوط العربي جعله يصحف العديد من الكلمات ، لابل اكثر من ذلك جعله يقوم بحذف الصحيح من متن المخطوط وايداعه بالحاشية واستبداله بما وهم انه الصحيح ، ودفعني هذا الى العودة الى تحقيق الكتاب وادخاله ضمن مواد موسوعتنا.

من الله اسأل العون، والسداد ، واتوجه اليه جل وعلا بالثناء والحمد والشكر.

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

دمشق ٢١ ـ ذي القعدة ١٤١٥ هـ

٢٠ ـ نيسان ـ ١٩٩٥ م

سهيل زكار

obeikandl.com